ذاكــــرة الآداب ـ٢٠ـ

في هــذه الـزاويــة، تفتـح «الآداب» نفسهـا عـلى ذاكــرتهـا، فتعود إلى ماضيهـا، تكشف مفارقـه، وعلامـاتِه المضيئـة، وهناتـه، ومـلامحَه، وآمـاله، وإحبـاطاتِـه. وإذ تعود إلى ذلـك الماضي، فـإنَّها تسعى إلى وصل أجزائها، بالاغتنـاء من تجاربهـا، دون أن يعني هذا بالضَّرورة إيثارَ ما سلف منها عـلى ما خلف، ولا جلْد ذاتِهـا على مـا قصّرتْ في القيام به أربعين عاماً أو تزيد.

إنَّ ذاكرة «الآداب» ليست إلَّا ذكريات جيل عـربيّ على مشـارف القرن الحادي والعشرين، يكشف أيَّامه الماضيّة ـ بمـا فيها من عـزيمة وشبـاب وأحلامٍ وجمـوح ونجـاح وإخفـاق ـ عـلى خلفـه أو مجايليـه الجدد. وقد يُعلِّق صـاحب المجلّة أو مديـر التّحريـر أو طرف ثـالث على بعض ما جاء فيهـا، نقداً أو نقضاً أو تثمينـاً أو إضاءة. وسـوف ترصد «الذّاكرة» أهمّ القصائد، أو المقالات، أو القصص القصيرة، أو الأبحـاث النقـديّـة، أو التمثيليّـات القصــيرة، أو النّصــوص الشّاعريّة، الّتي كان لها وقعٌ في السّاحة الثّقـافيّة العـربيّة آنـذاك، أو صار لها مثل هذا الوقع اليوم.

محطّتنا الثانية تعود إلى «الآداب» قبل ستّـة وعشرين عامـاً تمامـاً. ففي عـدد «الآداب» لشهـري تمّـوز وآب (يـوليـو وأغسـطس) عـام ١٩٦٧، نشر الشّـاعـر نـزار قبّـاني قصيـدتـه «هــوامش عـلى دفـتر النّكسة». فلنترك الشّـاعر يحدّثنا عن وقـع القنبلة، وذلك في كتـابه **قصّتي مع الشّعر**، وقد اقتطفنا مقاطع دالّة منـه، هي تلك الّتي تقع بين صفحتي ٢١٠ و٢١٩، وصفحتي ٢٣٦ و٢٤٣؛ علماً أنّ المقاطـع الأخـيرة لا تكتفي بعرض مـلامح من انعكـاس الهـزيمـة في وجـدان المثقّف الحزيراني، وإنّما تتّخذ كذلك موقفاً مؤيّداً من تعامـل الرئيس جمال عبد النّاصر مع المثقّفين بشكل عامٍ ـ وهو الموقف الّذي اتّخذته كذلك كـوكبة من المثقّفـين، وعلى رأسهم رجـاء النّقّاش ـ كـما تدين المثقّف الحقودَ النّمام الّـذي يستخدم السّلطة سلاحاً في وجـه زملائـه المثقّفين.

س. س. إ.

هوامش
على دفتر النّكسة

نزار قبّاني

- ١ -

أنعي لكمْ، يا أصدقائي، اللّغةَ القديمهْ..
والكُتُبَ القديمَهْ..
أنعى لكمْ
كلامَنا المثقوبَ كالأحذية القديمَهْ..
ومُفْرداتِ العهر، والهجاءِ، والشتيمَهْ
أنعى لَكُمْ..
أنعى لَكُمْ..
نهايةَ الفكر الّذي قاد إلى الهزيمَهْ..

- ٢ -

مالِحةٌ في فمنا القصائدْ
مالِحةٌ ضفائرُ النّساءْ
واللّيلُ، والأستارُ، والمقاعدْ
مالِحةٌ أمامنا الأشياءْ

- ٣ -

يا وطني الحزينْ
حوّلَتني بلحظةٍ..
من شاعرٍ يكتبُ شعرَ الحُبِّ والحنينْ
لشاعرٍ يكتبُ بالسّكّينْ...

- ٤ -

لأنَّ ما نُحِسُّهُ
أكبرُ من أوراقِنا..
لابُدَّ أن نخجلَ من أشعارِنَا..

- ٥ -

إذا خسرنا الحربَ.. لا غرابَهْ
لأنّنا ندخلُها
بكلِّ ما يملكه الشرقيُّ من مواهب الخطابَهْ
بالعنتريّاتِ الّتي ما قتلتْ ذُبابَهْ
لأنّنا ندخلها..
بمنطقِ الطّبْلةِ والزّرابَهْ..

- ٦ -

السرُّ في مأساتِنا..
صراخُنا أضخمُ من أصواتِنا..
وسيفُنَا أطولُ من قاماتِنا..

- ٧ -

خلاصةُ القضيَّهْ
توجزُ في عبارَهْ
لقد لبسنا قِشْرةَ الحضارهْ
والرّوحُ جاهليَّهْ..

- ٨ -

بالنّايِ والمزمارْ
لا يَحْدثُ انتصارْ..

- ٩ -

كلّفنَا ارتجالُنا
خمسينَ ألفَ خيمةٍ جديدَهْ

- ١٠ -

لا تلعنوا السَّماءْ
إذا تخلّتْ عنكُمُ.. لا تلعنوا الظّروفْ
فاللّهُ يؤتي النّصرَ من يشاءْ
وليس حَدّاداً لديكُمْ يصنعُ السّيوفْ

- ١١ -

يوجعُني أنْ أسمعَ الأنباءَ في الصّباحْ
يوجعُني
أنْ أسمعَ النّباحْ..

- ١٢ -

ما دخل اليهودُ من حدودِنا..
وإنّما..
تسرّبوا كالنّمل.. من عُيوبِنَا..

- ١٣ -

خمسةُ آلافِ سنَهْ
ونحنُ في السّردابْ..
ذقونُنا طويلةٌ..
نقودُنا مجْهولةٌ..
عيونُنا موانئُ الذّبابْ
يا أصْدقائي
جرّبوا أن تكسِروا الأبوابْ..
أن تغسلوا أفكاركمْ، وتغسلوا الأثوابْ..
يا أصدقائي..
جرّبوا أن تقرأوا كتابْ..
أن تكتبوا كتابْ..

أن تزرَعوا الحروفَ، والرُّمّانَ، والأعنابْ
أن تُبْحروا إلى بلادِ الثّلجِ والضّبابْ
فالنّاسُ يجهلونكمْ..
في خارج السّردابْ..
النّاس يحسبونكمْ
نوعاً من الذّئابْ..

- ١٤ -

جلودُنا ميّتةُ الإحساسْ
أرواحُنا تشكو من الإفلاسْ
أيّامُنا... تدورُ بين الزّار، والشطْرَنْج، والنُّعَاسْ
هل «نحنُ خيرُ أُمّةٍ قد أُخرجتْ للنّاسْ؟»

- ١٥ -

كانَ بوسع نفطنا الدّافقِ في الصّحَاري
أن يستحيلَ خنجراً من لهبٍ ونارِ..
لكنّهُ،
واخَجْلةَ الأشرافِ من قريشٍ
واخَجْلةَ الأحرارِ من أوسٍ ومن نزارِ
يُراقُ تحت أرجلِ الجواري..

- ١٦ -

نركُضُ في الشّوارعِ
نحملُ تحت إبطِنا الحبالا
نمارسُ السّحْلَ.. بلا تبصُّرٍ
نحطّمُ الزّجاجَ والأقفالا..
نمدحُ كالضّفادعِ
نشتُمُ كالضّفادعِ
نجعلُ من أقزامنا أبطالا..
نجعلُ من أشرافِنا أنْذالا..
نرتجلُ البطولةَ ارتجالا
نقعدُ في الجوامعِ
تنابلاً.. كُسالى
نُشطّرُ الأبياتَ.. أو نؤلّفُ الأمثالا..
ونشحذُ النّصرَ على عدوّنا
من عنده تعالى..

- ١٧ -

لو أحدٌ يمنحني الأمانْ
لو كنتُ أستطيعُ أن أقابلَ السّلطانْ
قلتُ له: يا سيّدي السّلطانْ
كلابُكَ المفترساتُ مزّقت ردائي..
ومُخْبروكَ دائماً ورائي
عيونُهمْ ورائي..
أنوفُهُمْ ورائي..
أقدامُهُم ورائي..
كالقَدَرِ المحتومِ، كالقضاءِ..
يستجوبونَ زوجتي..
ويكتبونَ عندهمْ أسماءَ أصدقائي..
يا حضرةَ السّلطانْ
لأنّني اقتربتُ من أسوارِكَ الصمّاءِ
لأنّني..
حاولتُ أن أكشفَ عن حزني وعن بلائي
ضُربتُ بالحذاءِ..

(...) إنّ حزيران كان ثمرة شديدة المرارة. بعضنا أكلها، وبعضنا اعتاد تدريجياً على مذاقها، وبعضنا تقيّأها فوراً.

أنا كنتُ من الفئة الأخيرة الّتي أضربت عن الطّعام، ورفضت الاعتراف بالجنين المشوّه الّذي طرحته رَحِمُ حزيران.

قصيدتي «هوامش على دفتر النّكسة» كانت المانيفستو الّذي ضمّنتُه احتجاجي ومعارضتي(...)

كتبتُ «الهوامش» في مناخ المرض والهذيان وفقدان الرّقابة على أصابعي. لذلك جاءت بشكل شحنات متقطّعة، وصدمات كهربائيّة متلاحقة، تشبه صدمات التيّار العالي التوتّر. كما أنّها من حيث الشّكل لم تكن تشبه أيّاً من قصائدي الماضية. كانت مثلي مبعثرة ومتناثرة كبقايا طائر الفينيق.

إنّني لا أذكر أنّني كتبتُ في كلّ حياتي الشّعريّة قصيدة بمثل هذه الحالة العصبيّة والتّهيّج.

التّهيّج هو ضدّ الشّعر. أنا أعرف ذلك، ولكنّني أعترف لكم أنّ هذا قد حدث، وأنّني للمرّة الأولى أخالف تقاليدي الكتابيّة الصّارمة، وأتعامل مع الانفعال تعاملاً مباشراً.

هل كان عليّ يا ترى ـ انسجاماً مع منطقي الفنّي ـ أن أنتظر انحسار مياه الطّوفان؟. وبالتالي هل كان على الأدب العربي، شعراً، ورواية، ومسرحيّة، أن يضع أعصابه في ثلاّجة، حتّى ترحل العاصفة، وتنحسر الغيوم الرّماديّة، وينبت للشّجر المحترق أوراقٌ جديدة(...)؟

نُشِرتْ القصيدة أوّل ما نُشِرت في مجلّة **الآداب** اللّبنانيّة. ولم أكن متأكّداً حين دفعتُ القصيدة إلى الصّديق سهيل إدريس أنّه سينشرها. فخطّ سهيل إدريس القوميّ خطّ متفائل، وأحلامه العربيّة مشربة دائماً باللّون الورديّ. لكن حين جاء سهيل إدريس إلى مكتبي ذات صباح، وقرأتُ له القصيدة صَرَخَ كطائر ينزف: أنشرُها.. أنشرُها..

قلتُ لسهيل: إنّ القصيدة من نوع العبوات النّاسفة الّتي قد تحرق مجلّته، أو تعرّضها للإغلاق أو المصادرة، وأنّني لا أريد أن أورّطه وأكون سبباً في تدمير المجلّة.

نظر إليّ سهيل بعينين حزينتين تجمّعت فيهما كلّ أمطار الدّنيا، وكلّ أشجار الخريف المتكسّرة، وقال بنبرة يمتزج فيها الألم الكبير بالصّدق الكبير:

أرغمني جندُكَ أن آكُلَ من حذائي . .
يا سيِّدي . .
يا سيِّدي السّلطانْ . .
لقد خسرتَ الحربَ مرَّتيْنْ
لأنَّ نصفَ شعبنا
ليس له لسانْ . .
ما قيمةُ الشّعب الّذي
ليس له لسانْ؟
لأنَّ نصفَ شعبنا
محاصرٌ كالنّملِ والجُرْذانْ
في داخلِ الجدرانْ
لو أحدٌ يمنحُني الأمانْ
من عسكرِ السّلطانْ
قلتُ له:
لقد خسرتَ الحربَ مرَّتيْنْ
لأنَّك انفصلتَ عن قضيّة الإنسانْ . .

- ١٨ -

لو أنّنا لم ندفنِ الوَحْدةَ في التّرابْ
لو لم نمزِّقْ جسمَها الطريَّ بالحرابْ
لو بقيتْ في داخل العيون والأهدابْ
لما استباحتْ لحمَنا الكلابْ . .

- ١٩ -

نريدُ جيلاً غاضبا
نريدُ جيلاً يفلحُ الآفاقْ
وينكشُ التّاريخَ من جذورِه
وينكشُ الفكرَ من الأعماقْ
نريدُ جيلاً قادماً مختلفَ الملامحْ
لا يغفر الأخطاءَ. لا يسامحْ
لا ينحني. لا يعرفُ النّفاقْ
نريدُ جيلاً . . رائداً . . عملاقْ

- ٢٠ -

يا أيُّها الأطفالْ
من المحيطِ للخليجِ ، أنتُمُ سنابلُ الآمالْ
وأنتُمُ الجيلُ الّذي سيكسر الأغلالْ
ويقتلُ الأفيونَ في رؤوسنا . .
ويقتل الخيَّالْ . .
يا أيُّها الأطفالُ، أنتمْ، بعدُ، طيِّبونْ
وطاهرونَ، كالنّدى والثّلج، طاهرونْ
لا تقرأوا عن جيلنا المهزومِ يا أطفالْ
فنحنُ خائبونْ . .
ونحنُ، مثلَ قِشْرة البطّيخِ ، تافهونْ
ونحنُ، منخورونَ . . منخورونَ كالنّعالْ . .
لا تقرأوا أخبارَنا
لاتقتفوا آثارَنا
لا تقبلوا أفكارَنا
فنحنُ جيلُ القيءِ، والزُّهريِّ، والسُّعالْ
ونحن جيلُ الدّجلْ، والرّقص على الحبالْ ،
يا أيُّها الأطفالْ
يا مطرَ الرّبيع، يا سنابلَ الآمالْ
أنتمْ بذورُ الخصْب في حياتنا العقيمَهْ
وأنتمُ الجيلُ الّذي سيهزم الهزيمَهْ

إذا كان حزيران قد دمّر كلَّ أحلامنا الجميلة . . وأحرق الأخضر واليابس، فلماذا تبقى «الآداب» خارج منطقة الدّمار والحرائق؟ . . هات القصيدة . .

وأعطيتُه القصيدة. وصدقتْ توقّعاتي وتوقّعاته، إذ صودرت المجلّة، وأُحرقتْ أعدادُها في أكثر من مدينة عربيّة. وجلسنا في بيروت، سهيل وأنا، نتفرّج على ألسنة النّار، ونرثي لهذا الوطن الّذي لم تعلّمه الهزيمة أن يفتح أبوابه للشّمس وللحقيقة.

لكنّ «هوامش على دفتر النّكسة» لم تستسلم للقمعِ والمطاردة، بل أخذتْ تتناسل كما تتناسل الأرانب بشكل خرافيّ: كلّ نسخة كانت تلد عشر نسخ . . وازدهرت عمليّات النّسْخ والطّبع على آلات الرّونيو(. . .)

وابتدأت ردود الفعل تأتي من كلِّ مكان في الوطن العربي: قبلاتٌ من هنا، وشتائمُ من هناك . . أزهارٌ من هذا، وأشواكٌ من ذاك . . غزلٌ من صوب، وطلقات رصاص من صوب آخر . . تقديسٌ من فئة، وتكفيرٌ من فئة أخرى(. . .)

ويكاد يكون من المستحيل أن أستعيد الآن جميع ما قيل عن «هوامش على دفتر النّكسة»، فهو معروف لدى كلّ من تابع وقائع المعركة في حينها.

إلاّ أنّه يمكن تلخيص عناصرها الرئيسيّة بالنّقاط التّالية:

(١) أنا شاعر وهبتُ روحي للشّيطان وللمرأة وللغزل الفاحش. فلا يحقّ لي، بالتالي، أن أكتب شعر الوطنيّة.

(٢) أنا المسؤول الأوّل عن هزيمة حزيران، بما كتبتُه ونشرتُه خلال عشرين عاماً، من شعرٍ عاطفي ساعد على انحلال أخلاق الجيل الجديد.

(٣) أنا في «هوامش على دفتر النّكسة» ساديٌّ، أعذِّب أمّتي، وأرقص فوق جراحها.

(٤) أنا أثبّط الهمم، وأقتل الأمل، وبالتالي فأنا عميلٌ أخدم بكلامي مصلحة العدوّ . . ولذا يجب شطب اسمي من قائمة العرب.

(٥) أنا لست وطنيّاً، ولكنّني أركب موجة الوطنيّة. وولادتي بعد حزيران ـ كشاعر ثوريّ ـ ولادة غير طبيعيّة.

كلُّ هذه النّعوت والأوصاف والإدانات لم ترمني على الأرض. بل

على العكس، كنتُ أشعر أنَّ قامتي تزدادُ طولاً، وأنَّني استطعت بقصيدتي أن أحرّك الجهاز العصبيّ للأمّة العربيّة، وأخرج العقل العربي من غرفة التّخدير(. . .)

لم يكن في نيّتي عندما كتبتُ «الهوامش» أن أمارس تعذيبَ النّفس، أو تعذيبَ الآخرين، ولا أن أسرقَ أضواء الكاميرا وأكسر مزراب العين حتّى أشتهر. ففي ساعاتِ الحزن الكبير تتكسّر كلُّ الكاميرات. . ويصبح المجدُ باطل الأباطيل.

ثمّ. . ما هو هذا المجد الّذي يأكل من جثّة التّاريخ، ويترعرع في ظلّ الموت والخرائب؟

كلّ ما فعلتُه هو أنّني استقلتُ من وظيفة مغنٍّ في الكورس الجماعي، ورفضتُ نصوص الأناشيد الّتي كانت تجترّها الجوقة بشكل غريزيّ.

استقالتي لم تقبلها القبيلة؛ إذ ليسَ من عادات القبائل أن تسمح لأولادها بالخروج على طاعتها ومناقشة آرائها بشكل علنيّ.

ليس من عادّة القبيلة ـ أيّة قبيلة ـ أن تقبل بمبدأ «النّقد الذّاتي»؛ فالصّحراء شديدة الغرور، وشمسها سيف نحاسيّ لا يقتنع بأيّ جدلٍ أو حوار.

النّقد الذّاتي شيء مخالف للطّبيعة العربيّة. وقناعة العربي بتفوّقه، وتميّزه، وسوبّرمانيّته، قناعةٌ لا تُقهر(. . .)

ولذلك لم يصدّق أكثر العرب قصيدتي لدى نشرها للمرّة الأولى. صدمتهم صيغتُها، ولغتُها، وأفكارها، ونبرتُها القاسية. كانوا قد أدمنوا «ديوان الحماسة» واستلقوا على وسائده المريحة. وكانوا واثقين من أنّهم وحدهم يشربون الماء صرفاً «ويشربُ غيرُهم كَدَراً وطيناً».

وهنا حدث الانكسار الكبير بين ذاكراتهم وواقعهم، بين الحلم وبين التّطبيق.

ولم تكن الشّظايا الّتي انغرزت في لحمي بعد نشر «الهوامش» سوى نتيجة طبيعيّة لتحطيم الزّجاج الملوّن في نفس الإنسان العربيّ، وسقوط مفهوم الوطنيّة بمعناه الديماغوجي والعشائري؛ هذه الوطنيّة الّتي كانت لا ترى ولا تسمع ولا تحفظ سوى بيت واحد من الشّعر يمثّل التعصّب القبلي في أعلى درجاته:

وما أنا إلاّ من غُزَيَّةَ. . إن غوتْ
غويتُ وإن ترشُدْ غزيّةُ أرشُدِ. .

إنّني بكلّ تأكيد أنتمي لغُزيَّة. . بالولادة، واللّغة، والميراث. ولكن انتمائي إليها لا يعني بصورة من الصّور إلغاء عقلي وبصيرتي، وسكوتي على حماقات غُزيَّة، وحماقات من يحكمونها(. . .)

* * *

ولكي يكتمل هذا الفصل عن حزيران، وعمّا نالني بسببه من صلب، ورجم، وتشهير، وتخوين، أجد أنَّ الأمانة التّاريخيّة تقتضيني أن أسجّل للرئيس الرّاحل جمال عبد النّاصر موقفاً لا يقفه عادةً إلاّ عظماء النّفوس، واللّماحون، والموهوبون الّذين انكشفت بصيرتهم، وشفّت رؤيتهم، فارتفعوا بقيادتهم وتصرُّفاتهم إلى أعلى مراتب الإنسانيّة والسموّ الرّوحيّ.

فلقد وقف الرّئيس عبد النّاصر إلى جانبي، يوم كانت الدّنيا تُرعد وتُمطر على قصيدتي «هوامش على دفتر النّكسة»، وَكَسَرَ الحصار الرّسميّ الّذي كان يحاول أن يعزلني عن مصر، بتحريض وإيحاء من بعض «الزمّلاء» الّذين كانوا غير سعداء لاتّساع قاعدتي الشّعبيّة في مصر، فرأوا أنَّ أفضل طريقة لإيقاف مدّي الشّعريّ، وقطع جسوري مع شعب مصر، هي استعداء السّلطة عليّ؛ حتّى إنّ أحدهم طالب وزارة الإعلام، بمقال نشره في إحدى المجلّات القاهريّة، بحرق كتبي، والامتناع عن إذاعة قصائدي المغنّاة من إذاعات القاهرة، ووضع اسمي على قائمة الممنوعين من دخول مصر.

وحين شعرتُ أنَّ الحملة خرجتْ من نطاق النّقد والحوار الحضاريّ، ودخلتْ نطاق الوشاية الرّسميّة، قرَّرتُ أن أتوجّه مباشرةً إلى الرّئيس جمال عبد النّاصر. وبالفعل بعثتُ إليه بالرّسالة التّالية:

«سيادة الرّئيس جمال عبد النّاصر

في هذه الأيّام الّتي أصبحت فيها أعصابنا رماداً، وطوّقتنا الأحزان من كلّ مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرّض اليوم من قبل السّلطات الرّسميّة في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة لنوعٍ من الظّلم لا مثيل له في تاريخ الظّلم.

وتفصيل القصّة أنّني نشرت في أعقاب نكسة الخامس في

حزيران قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النّكسة» أودعتها خلاصة ألمي وتمـزُّقي، وكشفتُ فيها عن مناطق الوجع في جسد أمّتي العربيّة، لاقتناعي أنَّ ما انتهينا إليه لا يعالَج بالتّواري والهروب، وإنَّما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيِّئاتنا.

وإذا كانت صرختي حادّة وجارحة - وأنا أعترف سلفاً بأنَّها كذلك - فلأنَّ الصّرخة تكون بحجم الطّعنة، ولأنَّ النّزيف يكون بمساحة الجرح.

مَنْ مِنَّا يا سيادة الرّئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟
مَنْ مِنَّا لم يخدش السّماء بأظافره؟
مَنْ مِنَّا لم يكره نفسه وثيابه وظلّه على الأرض؟

إنَّ قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيداً عن التبجُّح والمغالاة والانفعال، وبالتّالي كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن فكر ما قبل ٥ حزيران.

إنَّني لم أقل أكثر ممَّا قاله غيري، ولم أغضب أكثر ممَّا غضب غيري، وكلّ ما فعلته أنَّني صغت بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

وإذا سمحت لي يا سيادة الرّئيس أن أكون أكثر وضوحاً وصراحة، قلت إنّي لم أتجاوز في قصيدتي نطاق أفكارك في النّقد الذّاتي، يوم وقفتَ بعد النّكسة تكشف بشرف وأمانة حسابَ المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إنَّني لم أخترع شيئاً من عندي؛ فأخطاء العرب النفسيّة والسّياسيّة والسلوكيّة مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معاً؟ ومن يكون الشّاعر يوم يتحوَّل إلى مهرِّج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟.

لذلك أوجعني يا سيادة الرّئيس أن تُمنع قصيدتي من دخول مصر، وأن يُفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة وصحافتها.

والقضيّة ليست قضيّة مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر. لكنّ القضيّة أعمق وأبعد. القضيّة هي أن نحدِّد موقفنا من الفكر

العربي. كيف نريده؟ حرّاً أم نصف حرّ؟ شجاعاً أم جباناً؟ نبيّاً أم مهرِّجاً؟

القضيّة هي أن يسقط أيّ شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنَّه تفوَّه بالحقيقة.

والقضيّة، أخيراً، هي أن نعرف ما إذا كان تاريخ ٥ حزيران سيكون تاريخاً نولد فيه من جديد، بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.

قصيدتي أمامك يا سيادة الرّئيس، أرجو أن تقرأها بكلّ ما عرفناه عنك من سعة أفق، وبُعْدِ رؤية. ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأنَّني كنت أنقل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل، لوجوهنا الشّاحبة والمرهقة.

لم يكن بإمكاني، وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد؛ فحياد الأدب موت له.

لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمّتي المريض، أعالجه بالأدعية والحجابات والضّراعات.

فالّذي يحبّ أمّته، يا سيادة الرّئيس، يطهّر جراحها بالكحول، ويكوي ـ إذا لزم الأمر ـ المناطق المصابة بالنّار.

سيادةَ الرّئيس، إنّني أشكو لك الموقف العدائي الّذي تقفه منّي السّلطات الرّسميّة في مصر، متأثّرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئاً أكثر من سماع صوتي. فمن أبسط قواعد العدالة أن يُسمح للكاتب أن يفسّر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرّئيس، إلّا بحريّة الحوار؛ فأنا أُشتَمُ في مصر ولا أحد يعرف لماذا أُشتَم؛ وأنا أُطعن بوطنيّتي وكرامتي لأنّني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفاً من هذه القصيدة.

لقد دخلتْ قصيدتي كلّ مدينة عربيّة وأثارت جدلاً كبيراً بين والمثقّفين العرب إيجاباً وسلباً، فلماذا أُحرم من هذا الحقّ في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها؟

يا سيّدي الرّئيس...

لا أريد أن أصدّق أنّ مثلك يعاقب النّازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً في مواجهة نفسه وأمّته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيّدي الرّئيس...

لا أصدّق أن يحدث هذا في عصرك.

بيروت في ٣٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٦٧

نزار قبّاني»

ولم يطلْ صمت عبد النّاصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة، وهمومه الّتي تجاوزت هموم البشر، من الاهتمام برسالتي. فقد روى لي أحد المقرّبين منه، أنّه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرّسالة وكتب بخطّ يده التّعليمات الحاسمة التّالية:

١ ـ لم أقرأ قصيدة نزار قبّاني إلّا في النّسخة الّتي أرسلها إليّ. وأنا لا أجد أيّ وجه من وجوه الاعتراض عليها.

٢ ـ تلغى كلُّ التّدابير الّتي قد تكون اتّخذت خطأً بحقّ الشّاعر ومؤلّفاته، ويُطلب إلى وزرة الإعلام السّماح بتداول القصيدة.

٣ ـ يدخل الشّاعر نزار قبّاني إلى الجمهوريّة العربيّة المتّحدة متى أراد، ويُكرّم فيها كما كُرِّم في السّابق.

التّوقيع: جمال عبد النّاصر

بعد كلمات جمال عبد النّاصر، تغيّر الطّقس، وتغيّر اتّجاه الرّياح، وتفرّق المشاغبون وانكسرتْ طبولهم، ودخلت «الهوامش» إلى مصر بحماية عبد النّاصر، ورجعتُ أنا إلى القاهرة مرّةً بعد مرّة.. لأجد شمس مصر أشدَّ بريقاً، ونيلها أكثر اتّساعاً، ونجومها أكثر عدداً.

إنّني أروي هذه الحادثة الّتي لا يعرفها إلّا القلّة من أصدقائي، لأنّها تتجاوز دائرة الأسرار الخصوصيّة، لتأخذ شكلَ القضيّة العامّة.

فقضيّتي مع الرّئيس عبد النّاصر ليست قضيّة شخصيّة، أي علاقة بين قصيدة ممنوعة ورقيب يمنعها. إنّها تتخطّى هذا المفهوم الضيّق، لتناقش من الأساس طبيعة العلاقة بين من يكتُب ومن يحكُم، بين الفكر وبين السّلطة.

فالعلاقة بين الكتابة وبين الحكم علاقة غير سعيدة، لأنّها علاقة قائمة في الأصل على سوء الفهم وانعدام الثّقة. لا الكاتب يستطيع أن يتخلّى عن غريزة الكلام، ولا الحاكم يقبل أن يسمع صوتاً غير صوته، وإذا قبل أن يستمع فلا يطربه إلّا صوت الكورس الرّسمي. ومنذ القديم كان الكلام يقف في جهة، والمقصلة تقف في الجهة المقابلة. ومع هذا لم يتوقّف الكلام، ولم تتعب المقصلة.

وفيما يتعلّق بالحاكم العربي، فقد تعوّد ـ وراثيّاً ـ أن ينام على سرير من قصائد المديح والإطراء، وأن تُحمل إليه أشعار الشّعراء على صواني الفضّة. إنّه مقتنع ـ بحكم العادة ـ أنّه شمس.. وأنّه كوكب.. وأنّه ممطرٌ كالسّحاب، وكريم كالبحر، «فليتقِّ الله سائلُهْ».

والحاكم العربي الحديث هو ابنُ آبائه، يحمل ملامحهم النفسيّة، ونقاط ضعفهم، وقناعاتهم بالتفرّد والعصمة. ولا يتصوّر أنّ في قاموس الحكم كلمة «لا»، لأنّ أذنه أدمنْت كلمة «نعم» ورنينَها السّحريّ.

لقد كسر الرّئيس عبد النّاصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفنّ وبين السّلطة، بين الإبداع وبين الثّورة. واستطاع أن يكتشف ـ بما أوتي من حدْسٍ وشمول في الرّؤية ـ أنّ الفنّ والثّورة توأمان سِياميّان ملتصقان، وحصانان يجرّان عربةً واحدة، وأنّ كلّ محاولة لفصلهما سيحطّم العربة ويقتل الحصانيْن.